

احمد بجاء الدين

مصر تنهي غربتها

شاء لي الحظ ، ان تقسع الحرب في بلادي مرتين ، وأنا بعيد عنها ...

سنة ١٩٦٧ : في باريس .

سنة ١٩٧٣ : في بيروت .

غربة قاسية في الحاليتين ، ووحشة لا يعرفها الا من يكابدها ، وان كان شتان بين الغربتين : فالغربة الثانية انتهت بها الغربة كلها . سنة ١٩٦٧ كانت الغربة ليست بمعناها الجغرافي فقط ، ولكن بمعناها الروحي والمعنوي ، غربة طالت وطالت ، فلم أعد - ولم نعد جميعا منها - الا ظهر السبت ٦ اكتوبر ١٩٧٣ . ساعتها زالت غربتي ، وأنا ما ازال بعيدا في بيروت ، تفصلني عن بلدي بحمار وأخطار ، وزالت غربة خمسة وثلاثين مليون مصري ، بل ومائة مليون عربي ، كما تنقش السماء كلها في لحظة واحدة . سنة ١٩٦٧ ، في باريس ، كانت غربتان ..

غربة المكان البعيد ، والمساء الذي تلمسه من الناس ، والشماتة التي تملأ رائحتها الجو ، وتحس مذلتها حتى في لقمة الخبز : غربة ان أرى باريس تحتفل حتى الفجر بسقوط القدس ، وتمر المواقب في شوارعها خلال النهار هاتفة لاحتلال سيناء ، ولا توجد جريدة او اذاعة او شاشة تلفزيون الا وتطل منها صورة لعدو منتصر ، او مصري قتيل او أسير ..

كنت أخفض رأسي ، متحاشيا ان تلتقي عيني بعيني السيدة التي تصعد الى غرفتي صباحا بفنجان القهوة . فالى جوار فنجان القهوة صحف الصباح بعنوانها المذلة المهينة الشامتة ...

كان ابني الطفل قد طلب مني ان اشتري له لعبة مدفعا رشاشا ، فوصلت الى باب المحل ، ثم عدت على أعقابني : كم ستسخر مني البائسة في محل لعب الاطفال !؟

كم ألف قصة صغيرة ، مريرة ، يمكن ان احكيها وأروپها !؟ على ان غربة المكان كانت الغربة الصغيرة . فهي تنتهي بالعودة الى الوطن . ولكن الغربة الكبرى كانت قد بدأت . سبع سنوات والفرد فيها غريب والوطن فيها غريب . ليس هذا أنا . ليست هذه مصر . ليست هذه هي الامة العربية . العالم كله كانه غير حقيقي !

انني اعرف ما ينقص بلادي تماما . واعرف اننا من البلاد التي تحاول ان تزيج تركة تخلف طويل . ولكنني اعرف ايضا ، وبكسل موضوعية غير عاطفية ، ان مصر تستحق شيئا آخر غير هذه الغربة القاتلة عن نفسها وعن عصرها . المتعلمون في مصر وحدها اكثر من عدد سكان اسرائيل جميعا . التنوير والتطور والاتصال بالعالم عندهما عمره يقرب من قرنين . بلادنا حافلة بالفنيين والخبراء والمثقفين والعقول من أرقى طراز . وقد أثبتوا جدارتهم من مواقع شتى من العالم . وحافلة فوق ذلك بالشجعان ! وفي أرضها بشر لا قرار لها من حب الوطن وتركة الكفاح ورفض النذل والعدا . وضباطنا وجنودنا ليسوا أقل كفاءة ولا بسالة من كفاءات هذا الوطن . كانت هذه هي الغربة الكبرى .

وما هي الغربة ؟ أليست هي ان لا تعرف على نفسك ، ولا على من حولك او ما حولك ، ولا على وطنك وأمتك ؟

ان تكون عواطفك في عقلك وقلبك صورة وملامح حفرها التاريخ ، وعمقتها العاطفة والمعرفة معا ، ثم تنظر باحثا عن هذه الملامح فلا تتعرف عليها ؟

٦ اكتوبر ١٩٧٣ : في بيروت ، وبينى وبين بلدي الذي يحارب - بارادته هذه المرة - بحار وصحراوات .. ولكن الغربة زالت . لقد تم التعرف من جديد على النفس ، فالسافة الجغرافية لا تهم .

والعركة ليست بعيدة عن بيروت . ومن النوافذ ترى المعارك الجوية والطائرات تسقط في البحر . ولكن الفرد منا يمشي رافعا رأسه . فأخبار مقاتلينا تطل - منتصرة هذه المرة - من كل صحيفة واذاعة وشاشة تلفزيون بل ومن فم كل بائع سجائر او سائق تاكسي بيروتي ، وأنفاس القتال البطولي في سوريا الملاصقة تحس بحرارتها وتكاد تلمسها وأنت تسمع اخبارها من شهود العيان .

وتكون الرحلة الى القاهرة تحصيل حاصل . فهي انهاء شكلي للغربة التي زالت من النفس ومن الضمير . ساعات الطائرة الى بنغازي : ثم اربع وعشرون ساعة متواصلة بالسيارة عبر الصحراء الى القاهرة ، تدفعها لهفة واحدة : ان ارى وجه القاهرة اكتوبر ١٩٧٣ حتى تزول من خاطري صورتها يوم عدت من باريس في يونيو ١٩٦٧ ذات أمسية حزينة .

لقد أنهى الرئيس السادات غربتنا الكبيرة بقرار اكتوبر ١٩٧٣ ، قرار ربما كان كلمة واحدة ولكنه خلاصة لكل الآلام العظيمة والامال الكبار المختزنة منذ سبع سنوات .

وقد انتهت قواتنا المسلحة غربتنا بالطريقة الفذة التي نقلت بها القرار . انهم هناك تحت اللهب والنار وكانهم حملوا الغبار الثقيل الى العدو : السماء تنقش كلها في لحظة واحدة عن وجهه مصر الحقيقي .

الاهرام

١٥ تشرين الاول

مع بداية الاسبوع الثالث للقتال

تدخل حرب اكتوبر ١٩٧٢ اليوم اسبوعها الثالث . واول ما يخطر على البال قول موسى دايان كما سمعته بأذني يوم ٧ اكتوبر حين قال : « يومان لصد الهجوم المصري السوري ، ثم يومان يكتمل خلالها استعداء الاحتياطي الاسرائيلي ، ثم يومان لانهاء القتال ! » . في ستة ايام اخرى ، لا اكثر ولا اقل .

وايضا ، في نفس اليوم ، سمعت فولدا ماثير تعزف على وتر آخر ، موجه هذه المرة للعالم الخارجي « نحن ندافع عن انفسنا . انهم هم المعتدون ، ونحن لا نريد الا السلام » .. فاسرائيل سنسنة ١٩٦٧ وجدت في اغلاق خليج العقبة بضع ساعات سببا كافيا لشن الحرب ، ولكنها لا تجد في احتلالها لاراضي ثلاث دول عريضة ، وتشريد مليون عربي آخرين ، ورفض كل الضغوط الدولية من اجل السلام ، سببا لان يحارب العرب !

اما والحرب تبدأ اسبوعها الثالث ، فلا أظن ان هناك شيئا يستطيع ان يضيفه كاتب الى شعور أي مواطن :

لقد كان لا بد مما ليس منه بد ! كان لا بد مهما كانت النتائج ان تعرف اسرائيل ويعرف العالم ان ارضنا لها ثمن باهظ ، سوف نظل ندفعه حتى نستردنا .

والاتفاق شامل بين كل الملقين والمحللين في مختلف انحاء العالم : ان أي عمل تقوم به اسرائيل لا يمكن ان يلقي اثر التغيير الذي حدث : حتمية السيطرة الاسرائيلية على العالم العربي تحطمت . أسطورة عجز العرب - الابدي ! - عن استخدام أدوات العصر الحديث حتى الحربي منها ، لم تعد واردة .

يبقى ان يعرف هذا العرب جميعا ! بمعنى ان يعرفوا ان مردود هذا التحول ليس مقصورا على دول الواجهة وحدها . وليس مقصورا على استرداد او فقدان قطعة من الارض ، ولكن مردوده يشمل كل حياة العرب وكل مصالح العرب وكل مستقبل العرب في هذا العالم الذي تعاد صياغته لقرون طويلة مقبلة ، بالتطور الاقتصادي والعلمي والاجتماعي تارة ، وبالصرع او الوفاق السياسي تارة ، وبالدم والحديد والنار تارة اخرى .

ولنحاول استعراض كل قضايا العرب : حدود متنازع عليها .. جزر تائهة .. ثروات طبيعية لا تهدأ حولها حرب الاسعار .. آمال في التنمية والتقدم .. اموال سائلة في بحار من المضاربات الدولية .. ان ما يحدث في الجبهة يعكس على هذا كله : بالفارق بين أمة يعاملها العالم معاملة المهزوم المنع ، وأمة يعاملها العالم معاملة الند . وفي هذا المجال لا بد ان يقال ان أي ثروة او سائل خام ليس أغلى من الدم ! ولا بد ان يقال ان الاسهامات الرمزية لم يعد لها مجال .

ولا بد ان يقال ايضا ان كل شيء في الحياة قد يمكن معالجته او التعامل معه بنصف مجهود ، او نصف قلب ، ما عدا الحرب ! الحرب جوهرها هو كيف يستطيع شعب او تستطيع أمة ان تصنع فيها « كل شيء » من طلبة الرصاص الى لقمة الخبز الى دقيقة

العمل الى كفاءة العقل ، وبالسعة اللازمة .
فالشعار الذي يجب ان يرفعه كل قطر محارب ، وتفرضه على نفسها الأمة العربية جمعاء هو : الكل ... والآن !
قواتنا المسلحة تعطي « الكل ... والآن ! » .. فهل تعطي أمتنا هذه المعركة البطولية التاريخية : الكل ... وبدون تأجيل ؟
الوقت في الحرب ليس من ذهب .. انه من دم !

قال الرئيس انور السادات في أهم خطاب له ، في أهم يوم في حياتنا : « انني أفضل احترام العالم ولو بغير عطف ، على عطف العالم اذا كان بغير احترام ! » .

وليس هناك أصح من هذا الكلام . ليس في باب الكرامة والكبرياء فحسب ولكن في باب المصلحة ايضا ! ان عطف العالم لا يعطي شيئا ، في حين ان الاحترام هو الذي يعطي الكثير !

وهنا يجب ان يكون هذا الآن واضحا هذه المرة للعالم الخارجي ! هناك « اصدقاء » ليس لديهم مانع أبدا من ان يرتوا على اكتافنا ، ويخففوا من الآمنا ، ويصدروا التصريحات في تأييدنا ، وربما أعطوا ايضا اصواتهم لنا في المحافل الدولية .. ما دمنا الطرف الاضعف ، لكن هذا لن يحل لنا قضية ، في حين انه يضمن لهم مصالحهم الحيوية لدينا .

هؤلاء الاصدقاء ، فيهم الدول ، وفيهم الاحزاب ، وفيهم الكتاب والصحفيون !

ماذا يصيرهم ان يشتروا ما لدينا بالعطف ، في حين ان قلوب بعضهم ليست - في أعماقهم - مع حقوقنا ، وعقلهم الباطن يخشى انتصارنا ؟

الكثيرون اتقنوا فن معاملتنا على هذا النحو طوال سبع سنوات تقريبا !

ولهؤلاء يجب ان نقول ان هذه هي ساعة الحسم والصدق !
وقد خانت البعض مشاعرهم بالفعل ، فوجدناهم يتوجسون النصر العربي ... لان الأمة العربية - بموقعها ومساحتها وثروتها وتراثها - يمكن ان تكون ماردا يحسب لمستقبله ألف حساب . وهو حساب يؤرق بعض هؤلاء من « اصدقاء العطف » ، الذين يرغب « لاشعورهم » في ان تظل علاقتهم بنا علاقة الفني بالفقر لا أساس لديه ان يتصدق عليه بالعطف ، ولكنه لا يقبل بعد فكرة ان يكون شريكا له على نفس القدم من المساواة !

من أخطر آثار الاسبوعين الماضيين والاسبوع المقبلة : ان مزيدا من الناس في العالم بدأوا يشعرون ان المستقبل العربي يمكن ان يكون حقيقة !

سياسة الوفاق الدولي دائما عبر التاريخ ، هدف للقوى الكبرى في أي عصر ، اذا اقتربت بعجز كسل منها عن تنمية الاخرى ...

وعلى الأقل منذ فشل سياسة فوستر دالاس في احتواء روسيا ثم « ردها الى الوراء » على حد تعبيره ، ثم منذ سحب الصواريخ السوفياتية من كوبا في تلك المواجهة الخطرة سنة ١٩٦٠ ، وروسيا واميركا تعملان بشدة للوصول الى صيغة وفاق ..

وكان لا بد ان يمر هذا الوفاق عبر قضايا بالغة الخطر ومشحونة بامكانيات الانفجار : الموقف في أوروبا ومشكلة ألمانيا بالذات - تحديد الاسلحة النووية - حرب الهند الصينية - مكان العملاق الصيني من خريطة العلاقات الدولية - موازنة المصالح الاقتصادية للدولتين العظيمتين في أماكن شتى من العالم - والشرق الاوسط بمركزه الحساس .

ووصلت محاولات الوفاق الى قمتها بعد رحلتي نيكسون الى

إذا كانت صورتنا في العالم قد تغيرت الى الاحسن ، والهالة التي كانوا يحيطون بها انفسهم قد تبدت ، فهذه نتيجة اخرى .

إذا كان نهوضنا لاستئناف القتال غدا أسهل علينا نفسيا وعسكريا بكثير من نهوضنا به بعد ركود ست سنوات ، فهذه نتيجة هامة ايضا ، اذ سوف يحسب كل طرف في الدنيا حساباته على ان المصريين قد قاتلوا ، وأبلاوا بلادنا حسنا وسوف يقاتلون .

وإذا كانت ارادة القتال حلقات تتصاعد بينما القعود والركون له ايضا منطقه الذي يجذب المجتمع الى القاع ، فقد عادت عزيمتنا تطفو على السطح وتتفلس الحياة ، باستعداد اكبر لمواجهة مخاطر المستقبل دون وجل .

ولعل المرء لا يدرك الفارق الهائل الذي طرأ بانفخا قواتنا نحو القتال يوم ٦ اكتوبر ، الا اذا القى نظرة قارن فيها بين ما يشغل الاسرائيليين الآن (محاولة انقاذ سمعة اسرائيل القديمة - تقييم الخسائر الفادحة - الصراع حول من المخطيء - الشك في الطريق العسكري كطريق وحيد واكيد لمعاملة العرب) وبين ما كان يشغلهم حتى صباح ٦ اكتوبر ١٩٧٣ .

كانوا قبل ٦ اكتوبر يستعدون لانتخابات جديدة ، ولا مجال هنا لاستعراض ماذا كان يطالب به كل حزب . يكفي ان نقف عند نصوص البرنامج الذي وضعه الحزب الحاكم وانفق عليه بعد خلاف .

البرنامج - اولا - كان لمدة اربع سنوات مقبلة ، بما يشمل من اجراءات وميزانيات واعتمادات ومواعيد . كانوا يخططون في راحة بال تامة الى نهاية سنة ١٩٧٧ . أي انه كان في حسابهم ان لا شيء جديد حتى ١٩٧٨ على الاقل .

والبرنامج - ثانيا - يقوم ، على اساس استيعاب كامل للاراضي المحتلة بعد صراع حاد حول هذا الموضوع انتصر فيه من يسمونهم بانصار « الكل » أي ضم كل ما استولى عليه الجيش الاسرائيلي في حرب يونيو ٦٧ .

فقد اقامت اسرائيل في الارض المحتلة حتى الآن - خلال ٧ سنوات - ٦٦ مستوطنة يهودية ، تنفيذا لخطة الاستيلاء على الاراضي وتوطين الاسرائيليين فيها ، التي هي العمود الفقري لسياسة الضم النهائي . اما خطة السنوات الاربعة المقبلة فهي اقامة ٢٦ مستوطنة (قرية زراعية او صناعية او سياحية) كالتالي : ٦ مستوطنات في هضبة الجولان - ٦ في غور الاردن - ٧ في مشارف رفح - ٦ في قطاع غزة - ٣ في خليج العقبة !

وفوق ذلك المضي في ثلاثة مشروعات خطيرة : اولها توسيع « القدس » التي أعلنوا ضمها رسميا منذ ١٩٦٧ بحيث يضم الى المدينة عشرات القرى العربية وآلاف الافدنة الجديدة حتى تصل الى مدينة بيت لحم وتجعلها ضاحية من ضواحيها - وثانيها اقامة ميناء عميق ومدينة عند رفح - وثالثها اقامة مركز صناعي كبير في كفر سابا لنحويل منطقة طولكرم وقليلية المحتلة الى منطقة صناعية كبرى .

وكل التفاصيل حول اسلوب « شراء » الاراضي او الاستيلاء عليها وتطبيق القوانين الاسرائيلية على المستوطنات (تمهيدا لتطبيقها على كل الاراضي المحتلة) .. واردة في البرنامج الانتخابي الذي كان مقررا له ان يبدأ تنفيذه في نوفمبر المقبل .

ولم تغب أهمية هذه الوثيقة عن بال المعلقين الاسرائيليين يوم صورتها ، وكان ذلك قبل حرب اكتوبر بأسابيع قليلة ..

فطوال السنوات السبع منذ هزيمة ١٩٦٧ ، كان ما يسمونه « بمستقبل الاراضي المحتلة » محل نقاش حاد وطويل في اسرائيل . وطبعا لم يكن النقاش بين « يريدون » ومن « لا يريدون » ، لان الكل بالطبع يتمنى ويريد ، ولكنه كان بين من « يرون ان هذا ممكن » ومن يرون « انه غير ممكن » . وفي البداية ، كان الذين يرون ان هذا صعب ، هم الاكثرية .. ولكن مع مرور الوقت ،

الصين وروسيا والتوصل الى اتفاق فيتنام . والاعتراف بدولتين المائيتين ودخولهما الامم المتحدة ثم الاتفاقات الاقتصادية الكبرى المباشرة بين الدولتين ، وان كانت ما تزال معلقة بسبب اعتراضات كثيرة داخل اميركا ، بعضها من اليمين الاميركي التقليدي الذي يراها تقوية لروسيا ، وبعضها من الليبراليين بسبب تأييدهم لاسرائيل ورغبتهم في ربطها بالتأثير على موقف روسيا نحو اسرائيل والهجرة اليهودية .

ولكن كل دارس للسياسة يعرف ان الاحداث الدولية لا تعرف « المطلق » ابدا . خصوصا في عالم اليوم المتشابك المعقد ، الذي مهما بلغت فيه قوة الدولتين العظيمتين ، فهما لا تستطيعان السيطرة تماما على كل ما يمكن ان يحدث في العالم . لم يعد العالم مهملا كما كان في العصور القديمة : يكفي ان تتهدن الامبراطوريتان الرومانيتان لكي يسود السكون في العالم .

وحتى قبل بدء حرب اكتوبر في الشرق الاوسط بدأ من يقولون بان سياسة الوفاق وهم قصير العمر . وانها خلقت لكل دولة من الدولتين العظيمتين من المشاكل مع حلفائها وخصوصا اكثر مما حلت من مشاكل . الا نرى أوروبا تتلمذ وتعيد بحث موقفها ؟.. الا نرى اليابان تغير من كثير من اتجاهات عملها ؟ الا تستمر الحرب في كيموديا ؟.. أليست الصين تعود الى تدميرها وتحفظاتها ونقدها للدولتين معا ؟.. أليس ما حدث في شيلي بكل عنفه ساحة اخرى للصراع ؟ ثم أخيرا تنفجر حرب خطيرة في الشرق الاوسط ؟..

ان الخلاصة من هذا كله واضحة :

١ - القوتان العظيمتان لهما تأثيرهما الاكيد على ما يجري في العالم ، تأثير يقوى أحيانا حين يتفان ويضعف حين يختلفان ، لان اتفاقهما ليس كاملا ، ولا يمكن ان يكون كاملا ذات يوم ابدا .

٢ - ان الارادات المحلية لها دور كبير تلعبه وتؤثر به على اقدار نفسها .. أي ان امامها ساحة كافية للحركة ، وان الكثير يتوقف على تصميمها وعلى خلق واقع يؤثر على مواقف وسياسات القوى الكبرى ذاتها ..

فلا مجال للاستسلام امام بديهية غير حقيقية وهي ان الوفاق قاطع ، والرضوخ لطلباته حتمية ..

أليس قرار العصور التاريخي في ٦ اكتوبر ٧٣ ، وما خلقه فعلا من واقع جديد في الشرق الاوسط ، أسطع الادلة على ذلك ؟

الاهرام

٢٠ تشرين الاول

قبل وبعد ٦ اكتوبر

لست أقصد ان احدد « أين كانوا وأين كنا قبل ٦ اكتوبر » بمعنى المواقع التي تقف عندها جيوشهم وجيوشنا . فهي على وجه التأكيد مواقع للانطلاق نحو نضال سياسي عنيف او نحو قتال عسكري جديد أشد عنفا وضراوة .

لست أقصد ان المعنى الجغرافي في عبارة أين كانوا وأين كنا .. فالحرب لم تنته بوقف اطلاق النار .. وإنما أقصد المعنى السياسي والمعنوي والثفسي ، وهو ايضا تعبیر بالغ الأهمية او نتيجة بالغة الأهمية من نتائج القتال ..

إذا كانت ثقتنا بانفسنا وبقواتنا المسلحة قد ضعفت ، وثقتهم في انفسهم وفي قواتهم المسلحة قد هبطت ، فهذه نتيجة هامة ..

ميناء اشدود - اقرب الوانء الاسرائيلية الى سيناء .
وبدات حملات واسعة في اميركا لجمع المال والمساعدات والخبرات
لهذا الاستثمار الواسع لسيناء ...

وقد كان التخوف السابق لدى بعض الاسرائيليين هو ان ضم
الاراضي المحتلة مناه ضم مليون عربي لدولة اسرائيل الامر الذي
يهدد بتغيير هوية الدولة اليهودية مع الزمن . واستنام من بيننا عرب
كثيرون الى هذا الرادع لدى اسرائيل . ولكن الرد كان موجودا
ولكنه غير معلن : تهجير العرب تدريجيا من الاراضي المحتلة !

(ملاحظة اعتراضية : تقييم اسرائيل والصهيونية العالمية الدنيا
ضد روسيا دفاعا عن « حق الفرد في الهجرة من بلده » ولا احد
يتحدث هناك عن حق اسبق وهو : حق الفرد في عدم الهجرة من
بلده) .

فالى جانب القوانين التي تمنع العرب من اقامة مبان لهم
ولسكناتهم ، والسماح بشراء اراضي العرب بواسطة اليهود - حكومة
ومؤسسات وافرادا - والجمعيات الكثيرة المشكلة لتشجيع العرب
- خصوصا المتعلمين - على الهجرة الى اميركا وكندا واستراليا وغيرها
مع اعانات مالية ، وفرص عمل ، وكل هذه الخطوات كانت سائرة
في طريقها في ايقاع متصاعد باستمرار .

ان كل ما ذكرته ماخوذ من قرارات اسرائيل وتصرفاتها فقط في
الشهرين السابقين على حرب اكتوبر ... عندما كانوا في قمة تحويل
ترف احلام اليقظة لدى اكثرهم طموحا الى حقائق صلبة .

والواقع انها لم تكن بالنسبة لهم احلام يقظة . كان الواقع في
ايديهم ، وكانت ايديهم مطلقة الحرية في تشكيل هذا الواقع . بينما
كان كل ما لدى العرب - دم ، سلاح ، بترول ، كل شيء - واقفا
راكدا حسب البعض نائما وحسبه آخرون ميتا لا حراك له :

كانوا يشعرون حقا انهم يبيعون جلد العرب و « بعد » اصطياده !
ولكن ما بذلته قوائنا المسلحة من دمها وشجاعتها في اقتحام
ساحة القتال هو الذي قطع عليهم احلام يقظتهم التي كادت تتحول
الى واقع ، وهو الذي بعث الحياة في الكثير مما لدى العرب من
اسلحة رجال او مال او عتاد .. لانه اثبت ان الانتصار ممكن ..

لقد كان اتخاذ قرار القتال صعبا .
وكان القتال اشد صعوبة وضراوة ومرارة .
وهذا يوضح لنا ان المستقبل لن يكون بدوره سهلا .
وان التحديات الكامنة على الطريق الطويل كثيرة :
عسكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية ...

فمثل هذا الصميم الاسرائيلي لن يزول من افئدتهم في غمضة
عين . وتاريخهم القائم على الخديعة ، وانتظار الفرص ، والتامر
الدولي والانقضاض العسكري ، والنفاذ من خلال التناقضات العربية ،
يوضح انه حتى تراجعهم عن خطوط وصلوا اليها على الخريطة
لا يعكس على الفور تراجعا بنفس النسبة فاطماعتهم ، وعقيدتهم
السياسية ، ومخططاتهم التي يحسبون لها بالاجيال وليس بالايام
والشهور ...

كان جيشنا رأس الحربة في التصدي لعدوانهم على الخريطة .
بقي ان تكون كل طاقتنا الفكرية والنضالية والتنظيمية والانتاجية
زاحفة وراء رأس حربتنا : لتصد عدوانهم الكامن في نفوسهم ،
ولتكون كلها سندا لقوائنا المسلحة .

الاهرام

٣ تشرين الاول

واستمرار الركود ، وما بدا من انشغال العرب باي شيء سوى تحرير
ارضهم ، الا على صفحات الصحف وفي التصريحات ! اخذ عدد
الذين يرون « ان هذا ممكن » يزداد بسرعة ، ومع ذلك فقد ظل
حزب العمل الحاكم ممتعا زما طويلا عن جعل خطة الاستيعاب الكامل
برنامجا رسميا له ، حتى اقترب موعد الانتخابات التي كان مقررا لها
نوفمبر المقبل . واخذت استفتاءات الرأي العام توضح انه مع غياب
عنصر القتال ، اي غياب عنصر « الثمن » الذي يمكن ان تدفعه
اسرائيل ، اخذت اغلبيية الرأي العام تتجه بسرعة الى قبول فكرة
الضم الكامل ، وان الزمن لمصلحتهم . وهكذا وجد حزب العمل الحاكم
انه من الممكن ان يلتزم رسميا وتنفيذيا ببرنامج للضم الكامل .

قالت صحيفة « دافار » الاسرائيلية يومها : « هكذا اصبحت
هذه السياسة قرارا ملزما لمؤسسات الحزب ومثليه ، وستكون
هذه الوثيقة هي دليل العمل الموجه لنشاطات الحكومة كلها خلال
السنوات الاربعة المقبلة » .

وقالت « هارتس » ايضا : « كان الحديث عن هذه الاشياء
قبل ذلك شفها وضمنيا ، اما الآن فقد أصبح هذا التزاما ببرنامج
عمل لاشياء محددة كالميناء والمدينة اليهودية عند مشارف رفح كمنطقة
عازلة بين قطاع غزة « وذلك الجزء من سيناء الذي قد ترده اسرائيل
الى مصر » ، وتوسيع الاستيطان اليهودي في الضفة الغربية كلها ،
وتخصيص مليار وربع مليار ليرة لهذه المشروعات .. وهذا كله
يمثل اندفاعا في الضم لم يسبق له مثل في تاريخ اسرائيل » .

وقالت « هارتس » ايضا : « ان التردد في هذا الاندفاع
كان مبعثه في السابق خوف حكومة اسرائيل من خلق واقع يصعب
الدفاع عنه بعد ذلك ازاء الضغوط الخارجية ، ولكن هذا الخوف
قد زال الآن (كان هذا الكلام في اواخر سبتمبر) واعلنت ان الحكومة
قد بدأت فعلا في تنفيذ هذا البرنامج بضم ... فدان الى القدس ،
وقديما كانت تبرر الضم رسميا « باعتبار الامن » من باب المناورة ،
والايحاء بان الضم مؤقت (حتى يستقر طبعاً) ولكنها في هذه الحالة
بررت صراحة « بضمان العمل اليهودي وتوسيع المراكز الصناعية في
القدس » اي بالضم القانوني الرسمي الصريح » .

وبدا التنفيذ فعلا (قبل الحرب بشهر واحد ايضا) في ضم
بيت لحم الى القدس . اذ استولت حكومة اسرائيل على الاراضي
الزراعية العربية الفاصلة بين المدينتين ، وعندما احتج اصحاب
الارض من العرب قال لهم الحاكم العسكري في بيت لحم : « ان الاستيلاء
هو حقيقة منتهية » . وقالت احدى الصحف الاسرائيلية : « بهذه
الخطوة ، سيتم بصورة عملية اقامة اتصال مباشر بين بيت لحم
والقدس » . وعلقت جريدة « الاتحاد » هناك : « ان هذا يعني دمج
بيت لحم ، ثاني اكبر مدن الضفة الغربية ، ومهد المسيح ، السى
القدس واعتبارها جزءا قانونيا من اسرائيل » .

وفي اتجاه آخر عميق الدلالة ، بدأ الاسرائيليون قبل حرب
اكتوبر بشهرين فقط يعودون الى التنقيب عن البترول في سيناء ،
بعد ان كانوا قد توقفوا عن ذلك خلال حرب الاستنزاف - كما تقول
جريدة الجيروزاليم بوست - وان شركة « لاميدبار » (ملكيتها
اسرائيلية - كندية) اخذت تستعد لذلك ... وخصصت 10 مليون
دولار مبدئيا واختارت ثلاثة مواقع للبدء بالتنقيب فيها : الطور ،
ومانة ، العريش .. اي في ثلاثة اطراف سيناء .

واقترن هذا ، في نفس الشهر الذي نشر فيه هذا الخبر ،
بافتتاح بنحاس سايبير وزير المال لاول كلية اسرائيلية للعلوم البترولية
في « رامات اييب » .

وقبل ذلك بشهر ، افتتحت مصفاة جديدة لتكرير البترول في